صوت من ألف عام

للأستاذ محمد حسن الأعظمي

وهذا الصوت هو ديوان الأمير تميم بن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، وهو كما يعرف الأدباء أمير شعراء مصر في العصر الفاطمي. ويمكننا القول بأن تميما هذا كان مبدأ حياة خصيبة عامرة نشأ في وقت واحد مع القاهرة. وكان الشعر في مصر بما نعلمه من الضعف والقلة والندرة، إذ كان العصر العباسي الثاني حافلاً بدويلات مختلفة شبه مستقلة، وكان الشعر فيها يصيب تشجيعاً من أمراء العرب كدولة بني حمدان. إلا أن الحياة في مصر كانت طوفاناً مضطرب الأمواج بين أيدي رسل الخليفة من الأتراك الذين لم يكن الشعر العربي يلقى حياته المعروفة عندهم بحكم تباين اللغة والمنزع. لهذا كان يلجأ الشعراء إلى غير مصر ويلتمسون لأنفسهم الحياة والرقي في الشام وبغداد، بينما كانت اللغة الفارسية تلتمس في ذلك العهد نهضتها وانبعاثها في الدولة السامانية والغزنوية فإذا ما أتيح للفاطميين أن يقيموا دولتهم الكبرى في وادي النيل فنحن أمام دولة عربية هاشمية تحمي اللغة كما تحمي كتابها ودينها، ففي عصر الفاطميين أخصب البيان العربي وانفسح الميدان للشعراء يتبارون في قرض قصائده وعرض فرائده، وأمكننا أن نسمع مائة شاعر في رثاء بعض الوزراء ينشدون جميعاً وينالون الجائزة جميعاً، فيجدون من أريحية الفاطميين وسعة نائلهم ما يشجعهم على القول ويدفعهم إلى الإجادة. ولكن لماذا يحدث صاحب العمدة والثعالبي وغيرهما عن تميم والجميع قد أجمعوا أو كادوا يجمعون على أن تميما كان على عرش الإمارة في الشعر كما كان أبوه وأخوه على عرش الخلافة في مصر. الحق أن للسياسة دخلاً كبيراً في السطو على تميم وحرمان أبناء العربية أدهاراً طوالاً من ثمار تفكيره، فقد كان شعر تميم ضمن مخلّفات ذلك البيت المالك، وفي خزانة القصر الفاطمي التي كانت حافلة بمئات الألوف من الذخائر الأدبية والنفائس الفلسفية والعلمية، ونحن نسمع من التاريخ أحاديث مشعبة الأطراف عن الأحداث الجسام التي انتابت هذا القصر في كتبه وفي جواهره بل في أهله ومشيديه، وكان الأمر بعد عصر الحاكم نهباً في أيدي الثورات المتتابعة بين الجيوش السودانية والتركية من جهة والمصرية من جهة أخرى، وأصيب الملك كله بأزمة جائحة ونكبة فاجعة تركت القصر نهباً والكتب سلباً. ثم جاء بعد ذلك العصر الذي غربت فيه شمس الدولة الفاطمية فنهبت هذه القصور وأحرق أكثرها وحمل القليل من تحفها وجواهرها، وشاءت الأقدار أن تحفظ لنا تميما وأن ينقل من مصر مع من هاجر من بقايا هذه الأسرة وأتباعها الذين اعتصموا بجبال اليمن ولاذوا بحصونها الطبيعية المنيعة من غوائل أعدائهم. أما أدباء العرب والمؤرخون فلم يعرفوا عن تميم بعد ذلك إلا شذرات متفرقة وبضعة قصائد لعبت بها يد التحريف والتصحيف

إن البقية الباقية من أتباع الفاطميين لم يكونوا يأمنون على أنفسهم في جبال اليمن، فأرادوا النجاة بأرواحهم وبما في أيديهم من الكتب إلى الهند في مقاطعة كجُرات، فأقاموا بها وشيّدوا لأنفسهم هناك دويلة روحية وأقاموا لهم كلية عظيمة تدرس بها العلوم الفاطمية حيث يقبل الطلبة من أنحاء الهند إليها فيتعلمون بعد امتحان دقيق ما نصبو إليه نفوسهم من العرفان. وكان من نصيبي أن أدرس بهذه الكلية، أو بعبارة أقرب إلى الوضوح أنه كان يعتنى في هذه الكلية دراسة فلسفتها كما حاولت قبلها الانتساب إلى كليات أخرى في مذاهب شتى لاستكمال الثقافة الإسلامية من نواحيها العديدة، ولاعتقادي أن الحكمة ضالة العاقل يتشدها في كل مكان ويبحث عن لآلئها في كل غور وصقع. وكان هذا الديوان فيما وجدته بين نفائس المكتبة وما أكثرها، فنقلته من سبع نسخ مختلفة كما نقلت غيره من الكتب الخطية المفقودة في جميع مكاتب العالم، ومنها مثلاً ثمانمائة محاضرة لداعي دعاة الفاطميين المؤيد الشيرازي الذي ناظر أبا العلاء المعري. وقد أردت قبل طبع الديوان جملة أن أعرض على قراء الرسالة الغراء نماذج يسيرة من هذا الديوان

قال رداً على عبد الله بن المعتز في تفضيله العباسيين على العلويين في قصيدته التي أولها « أي ربع لآل هند ودار » :

يا بني هاشم ولسنا سواء ... في صغار من العلى أو كبار
إن نكن ننتمي لجدٍّ فإنا ... قد سبقناكم لكل فخار
ليس عباسُكم كشبل عليٍّ ... هل تُقاس النجومُ بالأقمار
من له الفضل والتقدم في الإسـ ... ـلام والناس شيعة الكفار
من له الصهر والمواساة والنصـ ... ـرة والحرب ترتمي بالشرار
من دعاه النبي خِدنًا وسمّا ... ه أخا في الخفاء والإظهار
من له قال لا فتى كعلي ... لا ولا منصل سوى ذي الفقار
وبمن باهلَ النبيُّ أأنتم ... جهلاء بواضح الأخبار
أيعبد الإلٰه أم بحسين ... وأخيه سلالة الأطهار
يا بني عمنا ظلمتم وطرتم ... عن سبيل الإنصاف كل مطار
كيف تحوون بالأكُفّ مكاناً ... لم تنالوا رؤياه بالأبصار
من توطّى الفراشَ يخلف فيه ... أحمداً وهو نحو يثرب سار
أين كان العباسُ إذ ذاك في الـ ... ـهجرة أم في الفراش أم في النار؟
أكم مثل هذه يا بني العبا ... س مأثورة من الآثار...؟
أكم حرمة بمم رسول (م) الله ليست فيكم بذات بوار؟
ولنا حرمة الولادة والأبـ ... ـوة والسبق والهدى والمنار
ولنا هجرة المهاجر قدماً ... ولنا نصرة من الأنصار
ولنا الصوم والصلاة وبذل الـ ... ـمعرف في عسرنا وفي الإعسار
ونحن أهل الكساء سادسنا الرو ... ح أمين المهيمن الجبار
نحن أهل التقى وأهل المواسا ... ة وأهل النوال والأيسار
فدعوا خُطة العُلى لدويها ... من بني بيت أحمد الأبرار
أو فلوموا الإلٰه في أن برانا ... فوقكم واغضبوا على المقدار
أجلتم سقى الحجيج كمن آمن (م) بالله مؤمناً لا يداري؟
أو جعلتم نداء عباس في الحر ... ب كمن فر عن لقاء الشفار
كوقوف الوصي في غمرة الموـ ... ـت لضرب الرؤوس تحت الغبار
حين ولّى صحب النبيّ فراراً ... وهو يحمي النبي عند الفرار
واسألوا يوم خيبر واسألوا ... مكة عن كرّه على الفجّار
واسألوا يوم بدر من فارس الإسـ ... ـلام فيه وطالب الأوتار
واسألوا كل غزوة لرسول (م) الله عمن أغار كل مغار
يا بني هاشم أليس عليٌّ ... كاشف الكرب والرزايا الكبار
فبماذا ملكتم دوننا إر ... ثَ نبيّ الهدى بلا استظهار
أبقربى فنحن أقرب للمو ... روث منكم ومن مكان الشمار
أم بإرث ورثتموه فإنا ... نحن أهل الآثار والأخطار
لا تغطوا بحيفكم واضح الحق (م) فيقضي بكم لكل دمار
وأصيخوا لوقعة تملأ الأر ... ض عليكم بمحفل جرّار
تحت أعلامه من الناطميين ... أسود ترمي شبا الأظفار
فاصدروا عن موارد الملك إنا ... نحن أهل الإيراد والإصدار
ولنا العز والسموّ عليكم ... والمساعي وقطب كل مدار
يا بني فاطم إلى كم أقيكم ... بلساني ومنصلي وانتصاري

ويرثي الأمير أهل بيت النبي :

نأت بعد ما بان العزاء سعاد ... فحشو جفون المقلتين سهاد
فليت فؤادي للظعائن مربع ... وليت دموعي للخليط مزاد
فآهاً بعدما ألفت مكانُدها النوى ... وقرّت بهم دارٌ وصحّ وِداد
وقد تؤمن الأحداث من حيث تتقي ... ويبعد نجح الأمر حين يراد
أعاذلتي عن فسحة الصبر مذهب ... فلهو غبرى مألف ومصاد
ثوت لي أسلاف كرام بكربلا ... هُمُ لثغور المسلمين سداد
أصابتهم من عبد شمس عداوة ... وعاجلهم بالناكثين حصاد
فكيف يلذ العيش عفوا وقد سطا ... وجار على آل النبي زياد
وقتلهم بغياً عُبيد وكادهم ... يزيد بأنواع الشقاق فبادوا
بثارات بدر قاتلوهم ومكّة ... وكادوهمُ والحق ليس يكاد
فحكّمت الأسياف فيهم وسلطت ... عليهم رماح للنفاق حداد
فكم كربة في كربلاء شديدة ... دهاهم بها للناكثين كياد
تحكّم فيهم كل أنوك جاهل ... ويغزون غزوا ليس فيه محاد
كأنهم ارتدّوا ارتداد أُميّة ... وحادوا كما حادت ثمود وعاد
ألم تعظموا يا قومُ رهط نبيكم ... أمالكم يوم النشور معاد
تداس بأقدام العُصاة جسومهم ... وتدرسهم جردٌ هناك جياد
تضمّهم بالقتل أمة جدهم ... سفاها وعن ماء الفرات تذاد
فأتوا عطاشاً صابرين على الوغى ... ولم يجبُنوا بل جالدوا فأجادوا

ولم يقبلوا حكم الدعيّ لأنهم تساموا وسادوا في المهود وقادوا
ولكنهم ماتوا كراماً أعزّة وعاش بهم قبل الممات عباد
وكم بأعالي كربلا من حفائر بها جُثث الأبرار ليس تُعاد
بها من بني الزهراء كل سميدع جوادٍ إذا أعيي الأنام جواد
معفّرة في ذلك الترب منهم وجوه بها كان النجاح يفاد
فلهفي على قتل الحسين ومسلم وخزي لمن عاداهما وبعاد
ولهفي على زيد وبثّا مردّداً إذا حان من بث الكئيب نفاد
ألا كبدٌ تفنى عليهم صبابةً فيقطر حزناً أو يذوب فؤاد
ألا مقلة تهمي ألا أُذن تعي أكلّ قلوب العالمين جماد
تفاد دماء المارقين ولا أرى دماء بني بيت النبي تفاد
أليس هم الهادين والعترة التي بها انجاب شركٌ وانمحل فساد
تساق على الإرغام قسراً نساؤهم سبايا إلى أرض الشآم تُقاد
يسقن إلى دار اللعين صواغراً كما سيق في عصف الرياح جراد
كأنهم في النصارى وإنهم لأكرم مَن قد عزّ عنه قياد
يعزّ على الزهراء ذلة زينب وقتل حسين والقلوب شِداد
وقرع يزيد بالقضيب لسنّه لقد مجسوا أهل الشآم وهادوا
قتلتم بني الإيمان والوحي والهدى متى صحّ منكم في الإله مُراد
ولم تقتلوهم بل قتلتم هداكم بهم ونقصتم عند ذاك وزادوا
أميّة ما زلتم لأبناء هاشم عِدى فاملأوا طرق النفاق وعادوا
إلى كم وقد لاحت براهين فضلهم عليكم نِفارٌ منكم وعناد
متى قط أضحى عبد شمس كهاشم لقد قل إنصاف وطال شراد
متى وُزنت صمّ الحجار بجوهر متى شارفت شمّ الجبال وهادُ
متى بعث الرحمن منكم لجدهم نبيًّا علت للحق منه زِناد
متى كان يوماً صخركم كعليّهم إذا عُدّ إيمان وعُدّ جهاد
متى أصبحت هندٌ كفاطمة الرضى
متى قِيس بالصبح المنير سَواد
أآل رسول الله سؤتم وكدتم سيُجزى عليكم ذلة وكساد
أليس رسول الله فيهم خصيمكم إذا اشتد إبعاد وأرمل زاد
بكمُ أم بهم جاء القران مبشراً بكمُ أم بهم دين الإله يُشاد
سأبكيكم يا سادتي بمدامع غزارٍ وحزن ليس عنه رقاد

وإن لم أعاد عبد شمس عليكم فلا اتسعت بي ما حييتُ بلاد
وأظلمهم حتى يروحوا ومالهم على الأرض من طول القرار مهاد
سَق حفراً وارتكم وحوتكم من المستهِلات العِذاب عهاد

وقال متغزّلاً :

قالت: أغدراً بنا في الحب قلت لها: لا نال غاية ما يرجوه مَن غدرا
قالت : فلم لم تزرنا قلت : زاركم قلبي ولم يدر بي جسمي ولا شعرا
قالت: كذا يكتم العشّاق حبّهم فينعمون ويجنُون الهوى نضرا
قلت: اسمحي لي بتقبيلٍ أعيش به قالت : وأيّ محبٍ قبّل القمرا

وقال يصف الناعورة :

وباكية من غير دمع بأعين على غير خِل دائماً تتحدر
يغني بها زجل المدير لقطبها فيطربها حسن الغناء فتنمر
إذا نزف العشاق دمع عيونهم فأدمعها مع كثرة السكب تغزر

وقال وقت الخروج من الشام سنة ٣٧٤ هـ :

قالوا الرحيل لخمسة تأتي سراعاً من جادى
فأجبتهم أني اتخذت له البكا والحزن زادا
سبحان من قسم الهوى بين الأحبة والبعادا
وأعار للأجفان سقـ ما يسترق به العبادا
يا ويح من منع الفراق جفون مقلته الرقادا

وقال في الحكم :

قواضب الرأي أمضى من شبا القضب
والحزم في الجد ليس الحزم في اللعب
بت ساهراً عند رأس الأمر ترقبه ولا تبت نائماً عنه لدى الذنب
يرجى دفاع الرزايا قبل موقعها وليس يرتجع الماضي من النوب
وأفضل الحلم حلم عند مقدرة وأعذب الجود ما وافى بلا طلب

وقال أيضاً :

قتيل الحوادث مَن خافها فلا تخش حادثةً تنجح
مع العسر يسر يجلّي الأسى ألم تتذكر ألم نشرح

وقال :

عتبتْ فانثنى عليها العتاب ودعا دمعَ مقلتيها انسكاب
وسمت نحو خدّها بيديها فالتقى الياسمينُ والعُنّاب

رُبَّ مبدى تعقّبٍ جمل العتـ ـب رياء وهمّه الإعتـــاب
فاسقنيها مدامةً تصبغ الكأ س كما يصبغ الخدود الشباب
ما ترى الليل كيف رقّ دجاه وبدا طيلسانه ينجاب
وكأن الصباح فى الأفق باد والدجى بين مخلبيه غراب
وكأن السماء لجـــة بحر وكأن النجوم فيهـا حباب
وكأن الجوزاء سيف صقيل وكأن الدجى عليها قِراب

وقال معرضاً ببعض القرابة، وذاك أنه ذكر أن الأمير يستعين على ما يأتى به من الشعر بغيره :

أرى أناساً ساءنى ظنهم فى كل ما قلت من الشعر
لمـا تطاطا بهمُ علمهم قاسوا بأقدارهمُ قـدرى
لو فهموا أو عقلوا لاستحوا أن يجعلوا المريخ كالبدر
قيسوا بشعرى شعره تعلموا تضايق النهر عن البحر
من بطّل الحق هجا نفسه يجهله من حيث لا يدرى
فناظرونى فيه أو فاشرحوا شعرىَ إن أنكرتم أمرى
أو لا فقولوا حسدٌ قاتل مستمكن فى القلب والصدر

وقال يمدح أخاه الخليفة العزيز بالله الفاطمى :

اشرب فإن الزمان غضّ وصرفه ليّن الجناب
من قهوة مزة كميت أسكرُ من أعصر الشباب
أرق من أدمع النصابى سكباً وأشهى من الضراب
صاغ لها المزج حين شبت بطاق در من الحباب
كأن فى كاسها صباحاً والليـــل محلولك الثياب
يسعى بها ساحر المآقى لا يمرض الوصل بالعتاب
كأنها لون وجنتيه وطيب ألفاظه العـذاب
إن ندى راحتى تزار ما زال يغنى عن السحاب
مهـــذب أروع السجايا مقابل ما جـــد النصاب

ومن أحسن ما قيل فى الأمير قول ابن رشيق :

أصح وأقوى ما سمعناه فى الندى من الخبر المأثور منذ قديم
أحاديث ترويها السيول عن الحيا عن البحر عن كف الأمير تميم

محمد مهدى الأعظمى

لـــو...

للأستاذ إيليا أبو ماضى

لو أننى يا هنـــد بدر السما هبطت من أفق إلى مخدعك
وصرت عقداً لك أو خاتماً فى جيدك الناصع أو أصبعك
أو بلبل البستان ما لذ لى الإنشاد إن لم يك فى مسمعك
ولو أكون الأرج الذاكى
لما هجرت الروض لولاك
وما حوانى غـــير مغناك
ولم أفح حتى تكونى معى

* * *

فيك وفى الوردة سر الصبا وفى الصبا سر الهوى والجمال
فإن ترينى واجماً باهتا حيالها أخفى عليهـا الزوال
فإننى شاهدت طيف الردى ينسل كالسارق بين الظلال
ولاح لى فى الورق النـامى
منطرحاً فى الأرض قدامى
رمـوز آمال وأحـــلام
أحلام من ؟ أحلام مضناك

إيليا أبو ماضى

أطلب مؤلفات
الأستاذ النشاشيبى
وكتابه
الإسلام الصحيح
من مكتبة الزهراء شارع الفلكى بالقاهرة
ومن المكتبات العربية الشهيرة